فضاء القصيدة الوطنية في ديوان أغنيات فلسطينية
قراءة في أرض الشاعرة سلافة حجاوي

د . بشرى البستاني
استاذة مساعدة في كلية الاداب
جامعة الموصل

الفضاء لغة هو « المكان الواسع من الأرض » وفضا المكان وافضى إذا اتسع » (١) وهو في الصحاح : « المساحة وما اتسع من الأرض » (٢) أما في الاصطلاح فان فضاء الشعر يتسع ليحتوي أشياء متباينة ومتعددة ، كالمكان والزمان والأشياء والاحداث التي تقع تحت سلطة إدراكنا عبر معطيات اللغة ..(٣) والشعر في حقيقته ذو فضاءين أولهما مادي وهو البيئة التي يضطرب فيها الشاعر ، وتشارك من طرفها بتشكيل الاطار المدرك الملموس لتجربته الفنية ، والاخر شعري ، وهو العالم الذي تحكم خطوطه فنية الشاعر وقدرته على التصوير والتأويل (٤) ووسيلته في ذلك اللغة ، إن عمق وعي الشاعر وسعة فضائه هما اللذان يحددان قدرة فنه الشعري على البوح لأن « محدودية الفضاء أخطر الوشوم التي تدمغ الشعر في دورانه اليابس في إسار الايديولوجية والسلطة »(٥)لأن هذا العالم «ذو مكونات قليلة ونمطية مشتركة ، ولا يتجاوز الفضاء الذهني الذي تتحرك فيه علاقة الشاعر بالقضايا الوطنية والسياسية والمذهبية من حيث هي مقولات ومشاعر جاهزة مألوفة صاغها

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، ٢ / ١١٠٧ ، دار لسان العرب ، بيروت ، بلا .
(٢) الصحاح في اللغة والعلوم – الجوهري ، م٢/٢٤٨ ، ط١ ، دار الحضارة العربية ، بيروت ١٩٧٤ .
(٣) الفضاء الروائي في الغربة ، الاطار والدلالة ، منيب محمد البوريمي ص ٢٠ .
(٤) فضاء الشاعر ، تأملات في قصيدة شاذل طاقة السياسية ، د. عبدالوهاب العدواني ص ١
(٥) النص المفتوح ، قراءة في شعر عبدالعزيز المقالح ، د. مصطفى ناصف واخرون ص١٠٢٣ .

الاجماع وختم عليها بأسداده فصارت سائغة للهضم والتمثل السريعين » (٦) لكن القضية الوطنية حينما تصير قضية الذات ، وموضوع البوح الشعـري تتجاوز حدود الايديولوجيا ، وتكسر أطر المذهبية الضيقة ليصير فضاؤهـا وسع الادوات التي يمتلكها الشاعر في التعبير ..

وللحديث عن فضاء القصيدة الوطنية في ديوان سلافة حجاوي سنقتصـر على قراءة خصائص أرض الشاعرة كما صورتها قصائد الديوان .

في تأملنا لحديث أي شاعر عن الوطن ، لابد من ملاحظة حقيقة مهمة هي « ان الوطن ليس جغرافيا فحسب ، وانما هو كذلك حالة ذهنية ، فكرة يتوسل الشاعر لاحيائها وبث الحياة فيها بكل ما يمكن ان يعينه على إعادة بنائها وتثبيتها في الذاكرة ، ووسيلته هي اللغة ، وحركته في الزمان والمكان حركة حرة تقوم على التداعي » (٧)فزمن الشاعر الفلسطيني هو تاريخ ، وتراث من الذكريات الشخصية والجمعية تحركه وتتحرك به قوة العلاقة التي ربطت بين فعل الانسان في الأرض وفي زمن أو أزمان بعينها ، هذا الفعل الذي لم يترك خطوطه على المكان أو يسجل أثاره في الزمن التاريخي حسب ، وانما ترك اثاره العميقة في ذاكرة الانسان واحداثه ، بحيث صارت تلك الاثـار مكوناً مهماً من مكونات الشخصية الانسانية ، بدونها يفقد الانسان توازنه ، كما يفقد شعوره بالانتماء والامان ، من هنا استرخص الانسان ما يقدمه من تضحيات في سبيل الأرض — القاعدة الاساسية للوطن ، وفي قراءتنا لقصائد ديوان سلافة حجاوي لابد من الاشارة إلى حضور المفردات الدالة على سمات مورفولو " وأخرى طوبوغرافية حضوراً ملحاً (٨) ..

---

(٦) م.ن

(٧) النص ، نحو قراءة نقدية ابداعية لارض محمود درويش،اعتدال عثمان،مجلة فصول العدد الاول لسنة ١٩٨٤ .

(٨) م.ن ص ١٩٨ .

١ ـ السمات الطوبوغرافية وتتضمن أسماء الأماكن والمدن والقرى الفلسطينية .

٢ ـ السمات المورفولوجية ، وتشمل الحياة النباتية في أرض فلسطين فأسماء الاماكن والمدن والقرى ومفردات الأرض والتراب والجبل والسهل والبحر والثرى تنتشر على صفحات الديوان بزهو ، حتى لنجد الزخم العاطفي المصاحب لهذه المدن والقرى ، وما يقترن بها أو يفوح منها من دم وذكريات يكاد يقف جائلا دون الاضاءات الفنية والاحالات الشعرية العميقة التي كان من الممكن ان تحققها القصائد لو لا استسلامها لتيار انفعالي عبرت عنه أحادية لغوية تقترب من البساطة وتبتعد عن التشابك الفني المعقد الذي تحتاجه التجربة الشعرية النازعة إلى تحقيق الجديد ، والتحقق فيه ، فأسماء الاماكن تطرح نفسها بعفوية ، وتنتشر عبر جسد القصيدة انتشاراً مباشراً (٩)

يا حبها ، يا حب دير ياسين
ها أنا ذا أراك في الليال
مع الرجال الاخرين تعبر الجبال
وصدر أمك الذي تسمعه يصيح
ما زال ينزف الرؤى / في قلبك الجريح
يلون السهل دماً
والماء والسحاب
يفجر التراب .

هكذا باسلوب النداء المباشر يبدأ مطلع قصيدة (رؤيا دير ياسين) في حين ان العنوان .. (رؤيا ..) يوحي بالكثير الذي لم تقله القصيدة ، كذلك تبدأ قصيدة (الحزن العائد ...) (١٠) .

(٩) اغنيات فلسطينية ، سلافة حجاوي ، ص
(١٠) م.ن ص ٢٥ .

إلى حيفا ، إلى يافا ، سنهرع يا أحبائي
نغني أرض آبائي
وعند الصبح احزان الشتاء المر تندثر
وعند القدس حيث التل والزيتون والقمر
سيشرق وجه احباب دفناهم
لكي نخطو على اشلائهم ، نخطو
إلى عكا وبيسان

ان لحيفا ويافا والقدس وعكا وبيسان ، وأسماء المدن الفلسطينية الأخرى في الديوان فضلاعن اسماء الانهار والقرى والاماكن حضوراً من شأنه أن ينمي إحساساً معيناً بالمكان وسماته ..(١١) وتتجلى هذه المدن والاماكن غالية نفيسة إذ تتحول إلى جواهر تزين جيد ورأس وخصر طفلة فلسطينية : (١٢)

حيفا لزند طفلتي سوار
يافا قلادة من المحار
محار أجمل البحار
عكا تويجات من العقيق / لرأس ابنتي الصديق
بيسان فستان / طرزه الربيع بالنبات
القدس خاتم الهوى / للاصبع الصغير

إن حلي المرأة احدى خصوصياتها الحميمة ، والمجاز الذي أحال المدن الفلسطينية إلى مجموعة مجوهرات يعني في حد ذاته غياب الفاصل ما بين أنا الشاعرة والأرض — الوطن غياباً كاملا فقد طوعت التجربة الشعرية أجزاء الوطن إذ انتشلتها من خريطتها وحولتها إلى جواهر تعدها الانثى جزءاً من

(١١) ينظر : النص ، نحو قراءة نقدية ابداعية لارض محمود درويش ، ص ١٩٨ .
(١٢) اغنيات فلسطينية ص ١١٢ .

مكونات الذات يقع في دائره الخرص والخوف والشعور بالتملك الذي يضفي على الانسان الكثير من مشاعر الأمن والاستقرار النفسي ، فحيفا تغادر امتدادها الواقعي المحتل لتتحول إلى سوار يلف معصم الطفلة ، ويافا تغادر حصارها لتصير قلادة ، والقدس خاتم ... والتشبيهات كلها صرخة رفض بوجه التشتت والبعد والفقدان والضياع ، فالشعور بالانفصام والفقد والفراق هو الذي دفع الشاعرة إلى خلق وضع من التلاحم الحميم والعناق مع أجزاء الوطن حتى كاد المقطع يوحي بحقيقة تعلن ان قيود العدو المحتل وأغلاله داخل الوطن أحب إلى النفس من حرية زائفة بعيداً عنه ، ولذلك كان السوار والخاتم والقلادة والحجل قيود وطنية تفرض على حاملها طقوساً من نوع خاص ، إن المقطع بهذا الشكل يرتفع إلى مستوى من التهجد الذي يمزج الغزل بالطفولة ويمحو الفاصل ما بين الذات والآخر ، ويعلن التوحد والخلاص .

في قصيدة (الشيخ عز الدين القسام ..)(١٣) يتوحد الوجدان : وجد الشاعرة ووجد الأرض بالبطل الفادي ، ويبدو النص وقد ضج بتشكيلات الأرض التي تعكس شغفاً لم يستطع قصر المقطع أن يكشف عما يعتلج فيها من لوعة ، فالارض ، الروابي ، تراب الأرض ، نجم ، الربوات ، تزرع ، السهول ، الجبل ، الشلال ، الغيمة ، عمان ، الجولان ، اللد ، الرملة ، كلها مفردات تحيل إلى أرض الوطن ، كما أنها امكنة مفتوحة تفصح عن الوضوح والالفة ، وهي جميعاً معرضة لاجتياح الضوء ، فالظلمة فيها عارضة لا تلبث أن تزول ، ويتلون الزمان إذ يدور من المضارع إلى الماضي ومن الماضي نحو الحاضر في حركة منسقة ما بين الأرض والفدائي (١٤) :

---

(١٣) م.ن ص ٨٥ .
(١٤) م.ن .

تمدّ الأرض في صمت روابيها
وانت على تراب الأرض نجم في لياليها
فمنذ مضيت للربوات
تزرعها وتفديها
تلفتت السهول اليك
رافعة أياديها

فالصورة الشعرية في السطر الأخير صورة متحركة تمكنت حيويتها من إلغاء اي حد يفصل ما بين الحقيقة والمجاز إذ صارت التفاتة السهول ورفع اياديها تهجداً وضراعة — حقيقة لا استعارة فيها ولا أدوات أو أوجه شبه ، حقيقة تليق بعظمة الرجل الذي أحب الأرض فاختصر طرق التعبير واختار الذرى.. الفداء والاستشهاد ، فضلاً عن التقابل الصوري التناصي مع نصوص تراثيـــة تحمل في تشكيلها حنيناً للأرض ووجداً بالمكان كعينية القشيري وبائية الشريف الرضي وغيرها من المقاطع التي تنبعث في الذاكرة ونحن نقرأ هذه الأسطر.

« إن المكان في العمل الفني يبتعد عن المكان في الأرض ، ولكن ثمة علاقة أكثر وشاجة بين الاثنين ، ذلك ان درجة الانعكاس التي يثيرها مكان ما لـه ملامحه وحضوره وكيانه على الفن تكون أشد من سواه ، ولذا يمكن ان يكون ثمة تشابه كبير هنا ، ولا يكون هناك ....فالعلاقة بين الاثنين لا تعكسها الكلمات ولا المسميات ، بل تعكسها اللغة المشتركة وذلك الاحساس الدفين ، والمناخ الذي يتيح لك ان ترى ما لا يمكن ان تراه وان تسمع كل الاصوات التي تعاقبت على سكناه ، وتقرأ كل التواريخ التي أصلته وأضافت اليه ..»(١٥)

ولعل فضيلة الادب العربي الفلسطيني شعراً ونثراً أنه استطاع ان يجسد لحظة

(١٥) الرواية والمكان ، ياسين النصير ص ١٧-١٨ .

المكان التاريخية تجسيداً واعياً بالخطر الذي يتربص بفلسطين وبكل ما يمت لها بصلة ، ذلك الخطر الذي لا يقبل بسوى الابادة هدفاً ستراتيجياً ليس لـه بديل .

إن القرية الفلسطينية تتلاحم بالمدينة في هذه القصائد من خلال وشائـج عميقة ، وهذا التلاحم يتأتى عبر حس فكري دعامته الانتماء الحاسم الـى الوطن ، لكن إشكالية قصيدة سلافة حجاوي تتلخص في غياب الحركة الداخلية أو الطاقة المحركة التي كان عليها ان تنمي اللحظات الثانوية التي مـن شأنها إغناء اللحظة الكبرى بزخم الفاعلية الانسانية الشخصية أو الجماعيـة ، وحينما عمدت إلى ذلك في بعض القصائد اتضحت ان قدرتها على تلوين مستوى القصيدة كما في (الحكم بالاعدام ..)(١٦).

ان سلافة حجاوي تغني في كل قصائد الديوان ، وهذا يعني ان« ثمـة قانوناً أساسياً نجم عن كون القصيدة أغنية فوسمها بعدد من السمات المحددة التي لا يمكن لها ان تفلت من إسارها ، وكون القصيدة أغنية يعني انها لحظة يحاول الشاعر ان يثبتها في ديمومة خارج الزمان ، مانحاً اياها بهاءها وتفردها عن أية لحظة أخرى .. » (١٧) واقتصار القصيدة على كونها لحظة يكاد يهددها ، بالعقم ، وبالعجز عن تكثيف واقع شعوري ونفسي ، فهي أبسط من ان تحتوي هذا الواقع الكثيف المتشابك أو تنظمه ، أو تعيد صياغته لذلك كان على شاعر الاغنية — اللحظة أن يتجاوز قصور اللحظة الواحدة بخلـق لحظة كبرى أو أساسية أشبه لمركز تتولد عنها لحظات قصيرة ثانوية تعمل على إلقاء الضوء على اللحظة الكبرى أو على خلق تجاوبات معها .. (١٨)

(١٦) اغنيات فلسطينية ص ١١٧ .
(١٧) كائنات مملكة الليل — محمد بدوي ، مجلة فصول ، العدد ٢ لسنة ١٩٨٣ .
(١٨) م.ن ص ٣٤٢ .

ففي قصيدة (الحكم بالاعدام) تلجأ الشاعرة إلى السرد الذي يعمل على تعميق اللحظة الشعرية وتكثيفها

في الليل أصدرت الاوامر للجنود
بقتل قريتنا الجميلة
زيتا عروسة كل أشجار الحقول
وكل أبناء القبيلة
زيتا مفتحة الاقاح

كما يدخل الحوار عنصراً محركاً وملوناً :

— تقضي الاوامر بالرحيل
زيتا ستعدم في المساء قبل مرتحل الأصيل
— إنا هنا في قلب زيتا صامدون

ويعود السرد ليواصل تجسيده للحدث المريع :

لحظات ثم تساقطت زيتا خضيبة
لم يبق في جنباتها طابون خبز لم تدمره الكتيبة
كل الحجارة والرجال
كانوا على وقع المحاريث الدخيلة سهل دم أو رمال
كانوا على الساحات منثورين في ضوء المحال

وهكذا يعمل الفعل في الماضي من الزمن فعله الذي التحم بالارض : رملاً وسهلاً وساحة وحجارة فشكل تراثاً من الذكريات التي أثرت بؤرة الحدث — ذبح زيتا — لكن الزمن يدور بعد ان انتهى الماضي من سرد أحداثه لينهض الفعل المضارع بومضة مستقبلية تنقذ القصيدة من السقوط في اليأس والاحباط ومن الاختناق في بحيرة الدم :

زيتا تهب على السهول شرارة من ارجوان
ومع الصباح
تعود زيتا للحقول ، كما يعود الارجوان
الليل في زيتا صباح
الليل في زيتا صباح

وهكذا يتضافر الزمان مع المكان ليرسما فضاء الوطن الذي استعصى على العدو ، فالقرية تنهض من صميم الموت مضرجة بعوامل القوة والحياة : النار والانبات ، ويؤكد الفعل المضارع بعث الحياة في القرية ـ الأرض : تهب ، تعود ، ويؤكد حضور الزهر : (الارجوان ، الاقحوان) حضور الخصب والتجدد والقدرة على التواصل والاستمرار ، أما الجملة الاسمية التي ينتهي بها المقطع فتأكيد على ثبوت الحال المناقض لارادة العدوان ، إنه ليس الليل الذي اراده العدو ، بل هو ليلنا الذي حولته إرادة الثورة إلى صباح ، وهو زمننا ، زمن الفداء والخلاص ، لقد توحد كل شيء في القرية بارادة الانسان الرافض للعدوان ..

لا يحضر النبات الفلسطيني في الديوان حضور تزيين بل يتشكل في أعماق الأرض تشكل سهولها وجبالها وأنهارها وبحارها ، انه يشارك في عملية القتال ، يصمد ويحمي المقاتلين ويستشهد ويرفض ، إن جماله الأليف يفقد استرخاءه ليتحول الى جمال مقاتل خلاق ، فهو ملتحم بجسد الأرض ، ينبض بها ومن خلالها (١٩) :

أموت لزهرة نبتت على سفح الجليل
تفوح من جسمه

(١٩) اغنيات فلسطينية ص ٣٧ .

أموت لنجمة سطعت على الغور العليل

تشع من عينه

أموت لتربة شربت دماه

وأطلعت ورداتها الحمراء من لحمه .

إن علاقة الشاعرة بالارض ومكوناتها ونباتها وتشكيلاتها تتحدد هنا عبر ضمير الفاعل حيث أُسندت الافعال المضارعة الثلاث في مطالع الاسطر إلى ضمير المتكلم : اموت لزهرة / اموت لنجمة / اموت لتربة / هذا الضمير الذي يمنح العملية الاخبارية فاعلية وحيوية تفوق الضمائر الاخرى فضلاً عن متعلقات الافعال التي جاءت على صلة حميمة بالأرض .

إن التعامل مع الارض من خلال أنسنتها الكاملة دليل على التلاحم التام بين شخصية الراوية – الشاعرة وبينها : تفوح من جسمه / تشع من عينه / من لحمه ويواصل الشعر : (٢٠)

ورفيقي يزحف في الوديان

قنديل ما بين الاشجار

رشاش عبر خطوط النار

تهتز الارض من الرهبة

قد عاد السرو من القرية

من ظمأ الخيمة في الصحراء

ان نبات فلسطين يطلع من أعماق جسد الأرض ، من لحمها ودمهـــا وضوء عينيها ، ولذلك كان النبات واحداً من تشكيلات الوطن الفلسطيني ،

---

(٢٠) م.ن ص ٣٣ .

يبرز ويتفوق على كل مظاهر وتشكيلات الطبيعة الفلسطينية الأخرى ، ومن هنا جاء حرص الشاعرة على منحه صفات انسانية ، قد عاد السرو من القرية ، فاغتراب السرو يعني اغتراب الحياة الفلسطينية بمجملها ، يعني نفسي الانسان الفلسطيني ، وهكذا يتمكن النبات من تحقيق معادل موضوعي يتحرك من خلال واقع شعب كامل ، إن قارىء الأدب الفلسطيني الحديث يؤمن بان « الشعر عامل ثقافي مهم في ترصين الوعي بجغرافية الوطن ، وبالتالي في تاريخيته ونضاله » .. (٢١)

ويظل الزيتون الرمز الفلسطيني الأصيل بدلالاته المكتنزة وما يحمل من رموز السلام والأمن والقيم التي بشر بها المسيح حامل غصن الزيتون فضلاً عن كونه إشارة الديمومة والتواصل ، فقد امتلكت هذه الثمرة بعداً عمقه القرآن الكريم بالقسم (٢٢) :

وفي أعطاف قريتنا
وفي زيتونها الغض
يقول الشيخ للأرض
نذرت لك البنين العشرة الاحباب / لا تهني ولا تبكي

ان الزيتون هنا استطاع ان يكون البديل الكامل للقرية ، والمعبر الحقيقي عن المكان إذ امتلك الأرضية التي جرى عليها الحدث في القصيدة : ففي زيتونها الغض يقف الشيخ معاهداً الأرض على الفداء ، وتتواصل الاحداث حتى تنتهي باستشهاد أحد البنين .

ان السرد الذي يشكل القصيدة سردٌ متواصل لا يعترضه قطع ولا يتداخل فيه حوار ، بل يسير بخط أفقي واضح وسريع ، وان القرية الفلسطينية هنا

(٢١) اشكالية المكان في النص الادبي ، ياسين النصير ص ٣٢١ .
(٢٢) اغنيات فلسطينية ص ١٨ .

تتلاحم بالمدينة مرة أخرى، فالمدينة والقرية في الديوان يصلحان تعبيراً لكل ما يتصل بالوطن من تراث تاريخي عام وشمولي مخضب بخصوصية شخصية تحمل دفء وحيوية الفردي ـ الجمعي للانسان الفلسطيني :

وفي أعطاف قريتنا
وعند اللد والرملة
هنالك تسعة عادوا

وقبل نهاية القصيدة يتلون السرد بحوار موجز عميق يتلخص باستفهام وجواب يكشف أبعاد الاستشهاد :

ـ واين اخوكم العاشر
ـ هناك أبي زرعناه
ـ هناك أبي زرعناه

ان قصيدة (الشيخ والأرض) التي لا تتجاوز العشرين سطراً تنساب لتمنحنا حدثاً أساسياً مضمونه الشهادة ، خالياً من التفاصيل الثانوية التي تزمي الى إضاءة النص وحشده بما يزيد من حجمه ، ان شخصية الشيخ وابنائه العشرة تقابلها على المستوى الاخر شخصية الأرض بمجمل تشكيلاتها : القرية ، الزيتون ، الكلمة ، الظل ، أعطاف القرية ، اللد ، الرملة ، وبفعل الشهادة يلتحم المستويان أو النسقان في عملية خلاقة طرفاها الانسان والارض : هناك أبي زرعناه ، وتظل الزراعة ومدلولاتها استقرار ، حضارة ، إنبات ، إثمار تجدد وتواصل ـ معادلاً حياً للاستشهاد ومدلولاته ، وكلاهما يفضي إلى حضور الوطن ومدلولاته حينما تؤكد النصوص امكانية الشهادة على تحريك الحاضر وتغيير مساره نحو مستقبل واعد بالبشارة (٢٣) .

(٢٣) اغنيات فلسطينية ص ٢٥ .

ـ وعند القدس حيث التل والزيتون والقمر
سيشرق وجه أحباب دفناهم
ـ لكي نخطو على اشلائهم ، نخطو
إلى عكا وبيسان
ـ يغفون مثل زهرة برية على الجبل

إن علاقة المناضل بالارض وتشكيلاتها تلوح من خلال جدل الثابت والمتحرك ، إذ يظل الثابت في الشعر الفلسطيني هو الأرض وحق انسانها فيها ، ويظل المتحرك هو هذه التشكيلات المحيطة بالارض والانسان من عناصر تعتمد في حضورها وغيابها على قوى قتاله الخلاقة في زمن الاغتصاب فالغيمة والبريق والشروق والمطر كلها عوامل حركة تحوم حول الأرض والانسان ، وهي رموز متحولة تمتلك قوة حضورها من قوة عراكه من أجلها ، وتأخذ علاقة النبات بالارض والانسان أبعادها في الديوان حتى يتحول النبات إلى مخبأ كنوز وحتى يتحول سجن المناضلين إلى بستان (٢٤) :

وباب السجن في ايامها شجرة
ورغم ارادة القتلة
نمت اغصانها ونمت
ضفائر شعرها النضرة
ستبقى هذه الشجرة
فكل فتون هذه الأرض في الاغصان مستترة
وكل سجينة في السجن في الاثمار منتشرة

إن الضربة الفنية التي حققتها القصيدة من خلال الاسطر الثلاثة الاخيرة

(٢٤) م.ن ص ١٢٥ .

تستحق التأمل ، فهذه الشجرة ذات الارادة الخلاقة هي التي اسقطت مراهنات العدو في المحق والابادة ، إنها إنبات وخصب ونمو ومقارعة ، وهي الثبات المتجذر مقابل القلع والقتل والتشريد والتشتت ، إنها الاثمار ـ المستقبل مقابل تعميم عوامل الموت والنفي .

واذا كان الزمن في معظم الشعر العربي ينقسم قسمين : زمن تاريخي هو عصر العرب الباذخ ، وزمن لا تاريخي هو هذا الحاضر المكبل بالاستلابات فإن قصائد سلافة حجاوي لا تحفل كثيراً بالزمن التاريخي قدر تسجيلها للحظة الحاضرة ، فالزمن أكثر الاحيان توحي به الظلمة ، القلق ، طغيان الممارسات الصهيونية ، المساء ، الليل ، الصباح : (٢٥)

يذكرني غروب الشمس بالعقب الحديدية
تدق الباب بعد الباب
تبحث عن فدائية
و
ـ فمع المساء وفي تراتيل الرياح
زيتا تهب شرارة من ازجوان
ـ الليل في زيتا صباح
ـ الليل في زيتا صباح

فالزمن الشعري هنا يواجه بعضه ، سلباً وايجاباً ، زمن الثوار يقاتل الزمن العدواني ، وتظل نوافذ النصر مشرعة على شرفات الغد الفلسطيني المشرق بالدم .

(٢٥) م.ن ص ١٢٣ .

ويلوح الماء في الديوان تشكيلاً مهماً من تشكيلات الأرض فالماء قوة خلاقة تحمل في ثناياها القدرة على التلاحم والتفجير والانبات والخلق ، وهو الرمز الكبير للوطن الانساني فحيثما وجد الماء وجد الانسان واستقر ، وإذ ينعدم هذا العنصر الخلاق فلا وطن ، والشاعرة إذ تعدد مصادر المياه في وطنها انما تزهو بتنوع مصادر الحياة فيه ، وقدرته على النمو والانماء والخصب ، ومن خلال نظرة متأملة في الديوان ندرك ان البحر يحتل المرتبة الأولى في حين تذكر مصادر المياه الفلسطينية الاخرى بشكل يكاد يكون عابراً ، ففي حين ترد مفردة الانهار مرتين ومفردات : الينبوع ، البئر ، النبعة ، البحيرة مرة واحدة في الديوان ، نجد البحر تكرر (١٠)مرات وذلك ناتج عن السلطة الطبيعية التي يفرضها حضور البحر على ما سواه من مصادر مائية ، فضلاً عن سيطرته على الاجواء النفسية للناس الذين ينتمون اليه لكن هذا الحضور لا يمتد بجذوره إلى تربة الشعر العميقة ، وانما تظل أبعاده في متناول اليد ، وتظل مضامينه اخبارية لا إحالية (٢٦) :

ـ له شعر كموج البحر ، عكا فيه أطياب

ـ الصحراء ، المأساة بحار

ـ انهمر الدمع على خدودها بحر

حيث تسيطر اللغة الاعتيادية ، والتشبيهات المألوفة في الحديث الدارج ، ويتحول الشهداء إلى جزء نابض من تضاريس الأرض ، كل شهيد معلم من معالم الوطن (٢٧) :

هذا زيد فيها جبل

ومحمد نافورة أضواء

(٢٦) م.ن ص ٦١ ، ٧٥ ، ١٥٩ .

(٢٧) م.ن ص ٧٩ .

قيسٌ سهلٌ

محمود ماء

أشجار ، أثمار ، أزهار .

وتصير محاولة التلاحم بالبحر والانتماء لمائه التحاماً بالوطن ووعداً بالرجوع اليه حينما ينحو التعبير إلى استعمال تأسيسي لمفردة البحر (٢٨) :

سأظل أمشي ، ثم أمشي حافية

حتى يقول البحر : اني ماؤه

وتردني ريح الشمال إلى ربوعك ثانية

فنضال الانسان الفلسطيني هنا يتواصل من أجل استرداد الهوية ، وهويته تتلخص ليس في العودة إلى البحر حسب وانما في انتزاع اعترافه بأن الماء الغريب ليس بمائه والناس الغرباء ليسوا أهله ، وهو يسترد ماءهُ باسترداد انسانه الفلسطيني ، وهنا لا يثبت الماء حضوره المادي والمعنوي كونه منفعة وحياة وبهجة فحسب وانما يؤكد انتماءه وجوداً كاملاً لشعب وارض ، ترى هل استطاع أحد عبر التاريخ ان يفرغ بحراً من مائه ؟ أم هل استطاعت قوة استبدال ماء بحر بصديد .

ويرد الماء في الديوان مصحوباً بالاشراق والتفاؤل والحلم والندى :

فتستحم الارض بالشروق والمطر

فالماء نعمة ورزق ورحمة وبركة (٢٩) وهو تطهير وتثبيت وشروع في الصمود «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ... وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام ..» (٣٠) وهنا تأكيد على أهمية الماء المادية والمعنوية حيث

---

(٢٨) م.ن ص ٤٤ .

(٢٩) ينظر سورة ابراهيم ٣٢ ، ٣٤ ، البقرة ٦٠ ، الروم ٤٦ ، الاعراف ٩٦ .

(٣٠) سورة الانفال ١١ .

جمع ما بين الجسم والقلب في جانبي النعمة كليهما .. (٣١) وكثيراً ما يرد الماء مصحوباً بالماء والشجر والخضرة والظلال ، فالماء والخضرة يتلازمان تلازماً سببياً والارض فضاء لهما معاً : (٣٢)

له الينبوع والأغصان والثمرة

له قطر الندى والعشب والأنداء والخضرة

إن سلافة ترسم خريطة ارضها بما تخط من مظاهر الطبيعة الفلسطينية ، والماء من اهم ادوات ترسيم هذه الطبيعة : (٣٣)

البحر والجبل / غلالة بيضاء

يا ميسة الجبل / يا وردة حمراء

والارض وما عليها من مظاهر الماء والشجر والتضاريس وإن كان طريقها الحواس ومهمتها الاحاطة والاحتواء «غير انها ترتبط بالفكر لان الرؤية البصرية ليست بمعزل عن العملية الفكرية بل هي الطريق لادراك المعنى وتفهم الشيء الدال على ذلك بوعي ويقظة وتفاعل» (٣٤) ولذلك كان الوطن هو تاريخ الفكر الجمعي ، وهو الموروث المشترك والمصير الواحد ..

مصادر البحث :

١ — القرآن الكريم

٢ — اشكالية المكان في النص الادبي — ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٦ .

(٣١) ينظر : الطبيعة في القرآن الكريم ، د. كاصد الزيدي ص ٧٨ .
(٣٢) اغنيات فلسطينية ص ١٣٩ .
(٣٣) م.ن ص ١٦٣ .
(٣٤) الطبيعة في القرآن الكريم ص ٩٥ .

٣ — أغنيات فلسطينية — سلافة حجاوي ، وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٧ .
٤ — الرواية والمكان — ياسين النصير ، وزارة الثقافة والاعلام ، دراسة في فن الرواية العراقية ، بغداد — ١٩٨٠ .
٥ — الصحاح في اللغة والعلوم — الجوهري ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ .
٦ — الطبيعة في القرآن الكريم — د . كاصد ياسر الزيدي ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٠
٧ — الفضاء الروائي في القرية ، الاطار والدلالة — منيب محمد البوريمي
٨ — فضاء الشاعر ، تأملات في قصيدة شاذل طاقة السياسية الحديثة — د . عبد الوهاب العدواني ، ندوة شاذل طاقة شاعرا وانساناً ، الجزء الثاني / مكتبة الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩ .
٩ — كائنات مملكة الليل — محمد بلوي ، مجلة فصول العدد ٢ لسنة ١٩٨٣ .
١٠ — لسان العرب — ابن منظور ، ٢ / ١١٠٧ ، قدم له العلامة الشيخ عبدالله العلايلي اعداد وتصنيف يوسف خياط ، دار لسان العرب — بيروت ، بلا .
١١ — النص المفتوح ، قراءة في شعر عبد العزيز المقالح — د . مصطفى ناصف وآخرون ، دار الاداب ، بيروت ط ١ — ١٩٩١ .
١٢ — النص ، نحو قراءة نقدية ابداعية لارض محمود درويش — اعتدال عثمان ، مجلة فصول ، العدد ١ لسنة ١٩٨٤ .